

إذا اردنا ان نتبع في قصة « الحى اللاتيني » خطأ نفسياً .. فعلى اي اساس يمكننا ان نختار هذا الخط ؟ وما مدى حريتنا في هذا الاختيار ؟ اننا بصدد قصة من النوع الذاتي .. وما دهنا سنتبع فيها خطأ نفسياً فملينا أولاً ان نسال : أية شخصية من شخصيات الحى اللاتيني تعطينا هذا الخط النفسي المتصل ؟

انها لا يمكن ان تكون شخصية « جانين » .. لان المونولوج الداخلي غير متوفر فيما يتعلق بجانين .. والمونولوج الداخلي هو وحده الذي يسمح لنا بان نرسم او نتبع خطأ . وقد يظن ان المذكرات - مذكرات جانين - نوع من المونولوج الداخلي، الا ان هناك اكثر من سبب يحول دون اعتبار مذكرات جانين كذلك ! فهي ليست من الكفاية والشمول بحيث يمكننا ان نتبع فيها خطأ. ليست كافية لانها تبدأ من النهاية - نهاية جانين - وليست شاملة لانها تصور جانين في فترة معينة ، في فترة تدرجها نحو الهاوية الى الضياع ، بل اكثر من هذا ليست حقيقية ، بمعنى انها مذكرات مصنوعة ، مذكرات مخترعة ، ولهذا القول اهميته البالغة التي سيلبسها القارئ عما قليل . ان المذكرات بديمة ومؤثرة حين يكون الامر امر الكلام عن « فن » الكاتب .. اما حين يكون الكلام عن نسبة المذكرات الى التجربة والواقع ، أي سما اذا كانت جانين هي التي كتبت المذكرات حقاً أم ان المؤلف قد تصورهما ، فالمذكرات مصنوعة متصورة ، فهي من حيث التجربة والواقع شيء ، وهي شيء آخر من حيث التأثير الدراماتي .. انها هناك متعاقبة « بصدق » الكاتب .. وهي هنا متعلقة « بفن » الكاتب ..

يملنا على هذا الظن اكثر من شبهة واكثر من دليل :

الشبهة الاولى اننا نرى طوال القصة دقة الكاتب وحرصه على التحليل البطيء حين يكون الكلام عن تجربة عاناها البطل . اذ نراه هنا يسهب ويطنب فحصى بكل دقة ويسجل كل جزئية ولا تفوته بادرة من بوادر الفكر والشعور الا امسك بها ، مما يتفق وكون الامر امر تجربة حية غنية . ونحن نرى من الطبيعي ان يرضى (هو) ضميره بالبحث عن جانين عند عودته من عطلة الى باريس ... ثم نتوقع ان يكون لقاءهما تجربة حافلة زاخرة تدفع الكاتب الى الاطراب والابتكار والملاحظة والتحليل وتقضي منه الدقة والبطء شأنه في سائر التجارب طوال القصة . ولكننا نرى العكس تماماً من ص ٢٨٢ الى ص ٢٨٥ ... فحين يلتقي (هو)

بجانين نجد الامر امر تصور لا يتيح القدرة على التحليل العميق البطيء والتصوير الدقيق . لان التصور هنا لا يستند الى رصيد من الواقع الناضج الحى في الشعور والفكر والسلوك. واذا جاز لنا ان نقول ان التاريخ وقائع مادية متراصة في الزمان فالقصة خطوط نفسية .. حياة نفسية ممتدة في الزمان. ونحن نرى في الصفحات سالفة الذكر سرد الوقائع يكاد يكون سرداً تاريخياً بالمعنى السابق ، فرى انتقالاً سريعاً مفاجئاً هو في

رائي مهدي في رواية سهريل ارسين

« زجس » ... في « الحى اللاتيني »

نعم نجيب سرور

الواقع هروب ، لان التصور - بعكس التجربة - فقير دائماً ، لا يمد الكاتب - اي كاتب - بما يحتاج اليه من رصيد، من حياة . فلا شيء يقفز بين رؤيتها - جانين - تطل من باب الكهف وبين استدارتها بيته وخروجها . ولا

بين هذا وبين دعوتها الى الجلوس في المقهى . فاذا جلسا لم يكن غير الصمت والاطراق ، وتجنبه النظر اليها وتجنبها النظر اليه . والواقع ان احتجاج الكاتب هنا بعجز الكلام عن التعبير ليس غير هروب من التورط في الاعتراف بعدم وجود شيء يقال او يكتب ... والتجربة وحدها هي التي تخلق هذا الشيء الذي يقال او يكتب .. ويبقى فراغ شاعر يحسه الكاتب فيحاول ان يهرب من جديد ، يحاول ان يلاؤه بشيء ، شيء قد يعطي تأثيراً دراماتياً ، ولكنه على اي حال اصغر من ان يلاؤ الفراغ ، هذا الفراغ الذي تملأه التجربة وحدها دون التصور والصنعة والاختراع . فاهذا الشيء الذي يحاول الكاتب ان يلاؤ به الفراغ دون جدوى ؟ هو انه « في اطرافه رأى قدميا .. كانت تتلحذاء مسكيناً ! » وحين يرفع (هو) عينيه فلتلقيا بمينها لا يرى الا زرققتها ، ثم ليس هناك غير أنها « مجهدتان » ، ويحس الكاتب الضيق بهذا المأزق ، يحس بنفسه تائهة في هذا الفراغ الواسع الذي لا تملأه نظرة الى حذاء مسكين .. او عينين زرقاوين مجهدتين ، فيتساءل : ماذا افعل ؟ .. اذن فليدع « جانين » تنبض ليدخل على هذا الصمت الملل وهذا السكون الجامد شيئاً من النطق والحركة . وتنهض جانين ، ويمد (هو) يده ليمسك بها فتقول : « ماذا تريد مني .. دعني اتابع طريقي » .. الواقع ان هذا السؤال - سؤال جانين جاء متأخراً .. فليس مكانه هنا بعد ان جلسا بالمقهى ، وانما الطبيعي ان يكون مكانه هناك عندما لحق (هو) بجانين بعد خروجها من الكهف مباشرة وسار معها في الطريق قبل ان يدعوها الى المقهى .. فا الذي جاء بهذا السؤال الى هنا ؟ انه التصوير الذي يمرض دائماً للوقوع في الخطأ .. ثم يسير الكاتب على اسلوب السرد التاريخي فيرصد وقائع مادية جنباً الى جنب دون ان يربطها بأثارها من الحياة النفسية : فيها يفادران المقهى ، ويلفها الليل ، وتلدف به الى زقاق ضيق .. ثم ترقى به بناء متشقق الجدران .. ويتبعها دون ان يقول كلمة .. وتخرج من تحت وسادتها مذكراتها .. ويفتح دفتر المذكرات .. وهكذا حتى ص ٢٩٤ .

نحن نميل الى القول بان البطل اللباني - في الواقع - لم يلتق بجانين بعد

عودته الى باريس .. ومقتضى هذا القول تغلب عنصر التصور والاختراع والصنعة على عنصر التجربة في القسم الثالث من القصة .. ومعنى هذا ايضاً ان المذكرات مصنوعة .. والشبهة الثانية هي إصرار جانين هذا الاصرار على مواصلة الكتابة وهي تمناني لفحات الجوع الفاظ . فالقول ان تنتهي المذكرات يوم (٥ ايلول) على الاكثر . أما ان يفكر الجائع في أن يسجل جوعه في مذكرات فليس

« سيفضب هذا البحث كثيرين لانهم سيشرعون احياناً انهم مقصودون بالذات ببعض فقراته .. لا يطل القصة فحسب .. ولكني اعلم ايضاً انه سيرضي كثيرين ... بل سيرضي هؤلاء الذين سيفضبون اذا استبعدوا مشاعرهم الخاصة . وتخلصوا من احكامهم الماطية ووقفوا من القصة ومن البحث موقف « الآخر » .. ولا بد ان يجدوا انفسهم راضين . ان الحقيقة بنت الصدق والشجاعة والموضوعية . فلتكن اشد مرارة من الملقم .. في اكثر حلاوة من الشهد ، ربما لانها من هذه الدرجة بالذات من المرارة . »

« ن . س . »

هذا بمقول على الاطلاق . لاني اتكلم عن تجربة، والدكتور سهيل لم يعرف الجوع - كما يبدو - أما أنا فقد عرفته جيداً .. حين كنت أعيش على الماء القراح دون أمل في لقمة تسد الرمق في يومي أو غدي أو بعد غد. والشيم الطبيعي ألا يفكر الجائع إلا بمعدته .. والمدة لا تحسن لإملاء المذكرات فضلاً عن ان البأس الذي كانت جانين قد انحدرت اليه حتى يوم (ه أيلول) لم يكن يسمح لها بأن تقيم وزناً لشيء ما ، لا للمذكرات ، ولا حتى لهذا البعيد . وقد دفع الدكتور سهيل دعواً إلى تصور المذكرات ، وإلى تصور لقاء البطل بجانين بعد عودته إلى باريس ليمد القسم الثالث من القصة بنبع دراماتي . وقد نجح ، ولكن نجاحه هنا لا يمنعنا من أن نرد المذكرات

إلى التصور لا الى التجربة وأن نقول إن القصة الواقعية انتهت يوم وصله وهو في بيروت ذلك الخطاب الذي قالت فيه: «سأواجه مصيري بشجاعة...» وإذن فالتجربة الحية الغنية النابضة الذاقة التي يمكن لها وحدها أن تمدنا بالخط النفسي المنشود غير موجودة فيما يتعلق بجانين...

فأين نلتصم الخط النفسي الذي زیده؟ أولى ألا نلتصم في تلك الشخصيات المديدة التي لا تفسر وجودها هي بقدر ما تساعد على تفسير ال(هو) اللبناني. إنها لا تقوم في القصة لذاتها بقدر ما تقوم لتحديد البطل اللبناني .. لا تقصد لذاتها بقدر ما تقصد لتعيين البطل اللبناني... إنها تماماً كذلك الفسات الممثلة التي تساعد على إظهار المضمون العام في لوحة ولكنها هي لا تكون مضموناً..

إننا إذن نلتصم الخط النفسي في شخصية البطل اللبناني لمدة اعتبارات :

أولاً- لأن المونولوج الداخلي متوفر في القصة بالنسبة له .. بل إن القصة بالنسبة للبطل ليست إلا ذلك المونولوج الداخلي المتصل

بعد استبعاد الصفحات الوصفية وصفحات السرد التاريخي .

ثانياً - لأن الأمر بالنسبة للبطل امر تجارب يمانها ويعمل فيها فكره وشعوره ويتحدد بكل اولئك سلوكه .

ثالثاً - لأنه ليس ثمة انفصال بين شخصية البطل وبين المؤلف .. فالمؤلف يفكر له .. ويشعر ويفسر ويبرر ويتصرف له . الكاتب قد تقمص شخصية البطل أو تقمص البطل شخصية الكاتب . وينطبق هنا تمام الانطباق تعريف (بيير هنري سيمون) لبطل الرواية بأنه «حالة من حالات المؤلف النفسية» .. فالقصة لا تفصل لنا بين المؤلف والبطل .. بين الخالق والمخلوق ، هذا بينما نجد انفصلاً كلياً بين المؤلف وسائر الشخصيات الأخرى .. فهو يتركهم يفكرون ويشعرون ويتصرفون لأنفسهم .. وهو لهذا لم يدر لنا

مونولوجاً واحداً في رأس شخصية من الشخصيات - ما عدا البطل - بما في ذلك جانين ... وقد سبق ان تكلمنا عن المذكرات التي كان يمكن أن يظن خطأ انها هذا المونولوج الداخلي .

رابحاً - لأن القصة قصة ذلك البطل ، لا قصة جانين ولا غير جانين .. وبعد .. فما الفتحاح إلى شخصية بطل الحي اللاتيني??

نحن نبادر فنقول انه «الترجسية»، ونحن مطمئنون الى صحة كشفنا ، وصدق نظرتنا، ورصيدنا الضخم من الملاحظات والقراءات والشواهد والبراهين ..

فما هي الترجسية?? .. لا يعنيها من صور هذا الانحراف غير صورة واحدة : عندما يتحقق للأنا الاشباع في صورة علاقة طبيعية بين الرجل

والمرأة .. يقول «فرويد» :

« إن الترجسية هي الحالة الاصلية

التي قد تتمخض عنها حجة الموضوعات

فما بعد دون أن يترتب على

ذلك بالضرورة إختفاء الترجسية

أي عشق الذات .. فقد

يكون المرء نرجسياً ، ومع

ذلك يمينا مع المرأة حياة جنسية

طبيعية المظهر بحيث يبدو كما لو

كان سوياً غير مصاب بشذوذ .

وهنا يختفي الباعث الشاذ تحت

غلاف الصورة الطبيعية .. وبمنا

الاعتراف يكون المونولوج

الداخلي .. وهو الذي يبين لنا

الشذوذ تحت المظهر الطبيعي .

والنرجسية في رأينا مفهومان ..

أولها الذاتية - الانانية - أي

عشق للذات يبعث على الرغبة في

تأكيدها وتقريرها وإبرازها ..

أي تبلور الاهتمامات وتركزها

على الانا ويكون هذا قبل

البلوغ .. وهي بهذا المفهوم

عامل مشترك بيننا جميعاً ، وإنما

الاختلاف اختلاف في الدرجة

فحسب بين فرد وفرد .. والمفهوم

الثاني هو العشق الجنسي للذات

ويكون من البلوغ .. يطلب

«البيدو» الاشباع فيتجه إلى

الأنا - الاشتباه الذاتي - لأن الذاتية هنا تكون بالغة درجة من التركيز

عالية تقطف «البيدو» على الانا ... أو تحول «البيدو» الى موضوع

خارجي دون ان يفقد ارتباطه بالأنا في صورة علاقة طبيعية بين الرجل

والمرأة . فالنرجسية - بمفهومها الجنسي - هي كما يقول «فرويد» : «التلتمة

البيدية للذاتية» تتخذ النرجسية بادىء ذي بدء صورة الذاتية قبل

البلوغ ثم تكتسب العامل الجنسي من البلوغ فتسلك في الاشباع أكثر من

اتجاه .. لا يهمننا هنا إلا اتجاه واحد هو صورة العلاقة الطبيعية بين الرجل

والمرأة .. فالذاتية كما يقول «فرويد» : «هي المنصر الثابت الواضح

في حين أن النرجسية - بمفهومها الجنسي - هي المنصر المتغير» .. يجب ألا



« نرجس في الحي اللاتيني »

بريشة محي الدين محمد

نخجل من الاعتراف بأننا جميعاً نرجسبون بهذا المفهوم الذاتي للترجسية .
فالداتية عامل مشترك بيننا جميعاً . والفرق بين الطبيعة والشذوذ ليس الذاتية
على كل حال ، بل الفرق في طريقة الاتباع - في اتجاه اللبido - وفي درجة
الشعور بالذات والاهتمام بها .. وإنما يكون للشذوذ عند المحرف «اللبيدو»
عن الاتجاه الطبيعي السوي .. أو - في حالتنا - عند وجود الباعث الشاذ
تحت الغلاف أو المظهر الطبيعي أو بمعنى آخر وراء الاتجاه الطبيعي ..
فلنظمن .. ثم ان وجود دلالة واحدة من دلالات الترجسية عند القارئ
لا يعني مطلقاً أن القارئ مصاب بالترجسية وإنما اجتماع الدلالات هو الذي
يقطع بالشذوذ ..

وهكذا يكون الشعور بالذات - الذاتية - ضعيفاً او في درجة
منخفضة عند الرجل العادي .. الرجل العملي الذي تفرغه الحياة اليومية
بفيض من المشاغل والمشاكل والمسئوليات فتصرفه الى حد ما عن التفكير في
ذاته .. وكعادة عامة يكون الشعور بالذات عتيقاً في درجة الغليان عند
غير العمليين .. وهؤلاء هم الفنانون .. ويضاف الى الفنانين هنا الفلاسفة
الذاتيون من ذوي المزاج الفني ويعتبر «شوبنهاور» نموذجاً بارزاً للفلاسفة
الذاتيين ذوي المزاج الفني . فلماذا كان هؤلاء فقط الذين يشعرون شعوراً
عميقاً بذواتهم ؟ لانهم وحدهم الذين يشعرون شعوراً عميقاً بالمصير .. ان
فكرة الموت تلمب هنا دوراً خالداً ..

الرجل العملي - عامل ، تاجر ، رب عمل كبير او صغير ، موظف -
غارق في لجة من الازدحام اليومي بالاعمال . فهو يعيش كل لحظة على
انفراد .. وقد يطم البصر الى غد ، ولكن في حدود الحساب العملي للربح
والخسارة .. والى مدى لا يبعد كثيراً عن المجال العملي الذي يعيش فيه .
انه لا يفكر بالمصير اللهم الا المصير الذي يهبه الآمال ، ذلك المصير الذي
يقضي على الآمال ويضع حداً نهائياً أقصى للتأمل .

فاذا عن العلماء ؟ انهم في ذلك اشبه برجال الاعمال .. فالعالم لا يلقى
النظر الى بعيد وإنما يلاحظ الحاضر . اكثر من هذا ان الامر عند العالم امر
ذات وموضوع .. توجد فيه الذات محض وسيلة لادراك الموضوع .. وحين
يكشف العالم حقيقة فانه لا يضمن الحقيقة شيئاً من ذاته .. وهو يعلم هذا ..
يعلم انها كانت موجودة قبله وبدونه .. وستظل موجودة بعده وبدونه ..
يعلم انه لم يخلق الحقيقة بل كشف عنها فقط . بل ان إعجاز الحقيقة التي
تخرج كل يوم من جراب المجهول ليميل دائماً الى ان يزيد العالم شعوراً
بالدونية ويرغمه على التواضع والاعتدال في تقديره لذاته واهتمامه بها .. فالعالم
يقيس ذاته بالنسبة الى هذا الوجود المعجز العظيم الرائع . وانه يخرج
عقب كل اكتشاف شاعراً بتفاهة وجوده الذاتي بالنسبة الى هذا الوجود
الكبير .. شاعراً بانه متضمن في هذا الكون .. بأنه شيء من هذا
الحضم العظيم .. شيء ما .. شيء صغير .. لا كل شيء .. من هنا لا تروعه فكرة
المصير .. ان الحال عكس ذلك تماماً بالنسبة للفنانين ولكل من له نصيب من
المزاج الفني .. فهؤلاء لا يفرقون في ازدحام يومي بالاعمال ، فامامهم وقت
طويل يسمح لهم بالتأمل وبتداعي التفكير الى الذات .. فالى المصير . ثم ان
العمل الفني يميل دائماً الى ان يؤكد الشعور بالذات ويثيره ويفذيه .. لماذا ؟
لان الفنان لا يكشف فقط عن حقيقة بل يخلق هذه الحقيقة .. ثم هو
يضمن عمله كثيراً من ذاته . ويشعر انه الخالق وان المخلوق لم يكن
ليوجد بدونه .. انه يواجه عملاً من خلقه قال له «كن» فكان . انه يشعر
بالوهيته .. يشعر عميقاً بانه كل شيء لانه يقيس ذاته بالنسبة الى العمل الفني
المخلوق لا الى الوجود الرائع الكبير .. هنا تنفجر الثورة على الموت ؛ هنا

يشور السؤال الخالد : « لماذا افنى انا الخالق وبقى المخلوق ؟ » ويتخيل
الفنان ما يمكنه ان يخلقه لو امتد به العمر الى ما لا نهاية .. انه يشعر
بلانهاية قدراته وامكانياته وطاقاته .. فلماذا لا تكون حياته بلانهاية .. لماذا ؟
لماذا لا تمتد به الى الابد ؟ لماذا لم يكن خالداً ؟ انه الموت الذي يحول
بينه وبين الاستمرار في الخلق والابداع .. انه الموت الذي يقطع عليه
وجوده الخلاق .

اذن لقد صدق « هيو قراط » حين قال : « الحياة قصيرة .. ولكن
الفن طويل » .

وصدق « كلود برنارد » - بمعنى ما - حين قال : « الفن انا .. والعلم نحن » .
ففي أية طاقة من الطوائف الثلاث نضع بطل الحى اللاتيني ؟
في طائفة الفنانين طبعاً .. فهو شاعر .. ثم هو شاب يحضر للذكوراء
في الادب العربي ويفوز بها في نهاية القصة .. انه فنان ، ليس بالرجل العملي
ولا بالرجل العلمي ..

وقد قصدنا بهذا الاستطراد ان نبين ان بطل الحى اللاتيني على نصيب
كبير من المزاج الفني .. فهو بالتالي على نصيب كبير من الذاتية .. واذن
فهو قابل لان يصاب بالترجسية . اما هل هو مصاب بالترجسية ام لا ، فهذا
ما يحاول هذا البحث ان يستخلصه من القصة .

غالباً ما يكون ابن الارملة والمطلقة نرجسياً .. وحين يموت الاب او
يهجر الام يكون من هذه ان تتجه الى الابن الصغير بكل عواطفها ..
بكل ما ينطوي عليه حنانها من تمطش للحب وجوع للحنو . وتتركز اهتمامات
الام في الابن الصغير فيكون لها رجلاً صغيراً يمل محل الاب الهاجر او المتوفي
ويكون الافراط في الاهتمام بالصغير ويشب هذا فيجد نفسه مرموقاً بالعناية
محوطاً بالتدليل .. مصباً للعطف والحنان . فيشعر بذاته .. ثم يتعلق بهذه
الذات حباً وتولهاً واهتماماً . وحين يفرض عليه ان يخرج من هذا المحيط
الصغير - البيت الذي هو فيه كل شيء .. الى المحيط الكبير - العالم
والناس - يكون قد توقع ان يجد من المجتمع - من المرأة على الخصوص -
ما كان يجد من امه .. ثم تكون الصدمة فيكون التصدع .. هذا بالضبط
هو حقيقة الامر في بطلنا اللباني .. انها ام فقدت زوجها - فلم يذكره
بطلنا على طول القصة بكلمة واحدة - واغفاله ذكر الاب هذا الاغفال
دليل على انتفاء اثر الاب في حياة الابن مما لا يفهمه غير موت الاب قبل
ان يولد البطل او بعد ان ولد بقليل . ثم لم يكن من المعقول ان تتجه
الأم الى احد ابنائها الكبار لإشباع رغباتها الجائعة الى الرجل وللم
الفرغ الذي تركه الزوج من حياتها لأن لكل من الابنين الكبيرين
مشاغله في التجارة كما تقول القصة .. وربما مسؤولياته العائلية أيضاً التي تصرفه
عن أمه .. أما هذا الصغير فهو الذي سيطر مع الأم الى ان يتزوج ..
ولم ان يتزوج سيكون لها الرجل الذي تحرم عليه والذي يموضها
بطريقة ما عن الزوج . وحين يقدر له ان يكبر ويجب ستشعر الام بغير
قليل من الغيرة والحسد والحقد . وهذا ما أدركته أخت بطلنا حين طلبت
اليه ألا يري صورته مع جانين لانه .. لأنها « تثار احياناً » .. ولم يكن
سبب موقف الأم من علاقة البطل بجانين هو الشرف أو التقاليد أو العرف
الشرقي فحسب .. فالواقع ان كل أولئك مجرد فتاع لغيرة الأم من جانين
.. لحقدتها .. لحسدتها .. لأنانيتها .. إن الأم تريد لنفسها . وليس
ينفي هذا عنها كونها عملت جاهدة على توجيه ابنتها الى « ناهدة » . فالأم
وإن كانت في باطنها تود لو بقي ابنتها لها وحدها فانها تحس في الوقت نفسه

باستحالة هذا .. تحس أنه لا بد سبتجه إلى غيرها .. فتدفعها هذه الاستحالة إلى التحايل في التوفيق بين رغبتها الباطنة وبين الواقع المحتوم .. فهي تحب « ناهدة » .. إذن فترجعه نظر ابنها إلى ناهدة .. إلى ناهدة بالذات .. والحالة حالة تقمص .. والأم لا تحب جانين، لأنها لم تر جانين حتى يمكن ان تحبها وهي لهذا لن تقمص شخصية جانين .. وزواج الإبن بناهدة طريقة من طرق التمويه والاشباع .. وفكرة تقمص الأم لناهدة ليست فكرة غير معقولة .. وليست تعسفية .

وفيمكننا بعد هذا أن نضع تفسيراً لتعلق الابن بالأم في قصتنا على أساس الترجسية دون تعسف أو إقحام .. ولكن بقي شيء يجب أن يقال حول كلام الصديق أحمد كمال زكي عن عقدة أوديب . إن عقدة أوديب تحول دون توفيق المصاب بها في ان ينشئ مع المرأة علاقة غرامية ناجحة .. إذ الشرط ان يتخلص الشخص أولاً من شبح الأم . لذا لم ينجح « ليوناردو دافنشي » في أن يدخل في علاقة مع امرأة لأن العقدة لم تحل أبداً فأعترف كما هو معروف إلى الجنسية المثلية التي تصرخ من خلال روايته الفنية . عقدة أوديب إذن حائل ضخم يحول دون التوفيق في أية علاقة غرامية . وإنما يكون النجاح بعد ما تحل العقدة وقبل هذا يكون من المستحيل وجود علاقة بين المصاب بها والمرأة . والاستاذ أحمد كمال زكي يقول إن عقدة أوديب حلت عندما واجه البطل أمه عند عودته من باريس . ولكنه ينسى أن البطل قد نجح نجاحاً تاماً قبل ذلك في أن ينشئ علاقته الناجحة بجانين مما كان يبدو مستحيلاً لو كان مصاباً بعقدة أوديب .. فالشرط ان تحل العقدة أولاً ... هذا بينما لا تحول الترجسية - كما بينا - دون نجاح المصاب بها علاقاته مع المرأة ...

وقبل كل شيء يجب ان نتذكر جيداً ان من لوازم الترجسية الميل الجارف إلى الاعلان عن الذات .. إلى عرضها وإظهارها ولفت الأنظار إليها .. ولنتذكر أيضاً أن الفراغ .. الوقت .. الخلو .. الداء أعداء الطبيعة الترجسية، فالترجسي في حاجة دائماً إلى الحركة .. إلى الانفعال، وهنا نتذكر لجوء بطلنا من هول الفراغ وقسوته إلى لعب الورق ... فلنمض فيا اتوبيناه :

تبدأ القصة بصراخ الذات تنادي ذاتها . لأنها تصرخ وتتمن في الصراخ ولكنها لا تسمع رجماً لندائها بينما تمخر الباخرة عباب البحر ميممة شطر باريس : « كان يستيقظ أحياناً على نفسه ويعي هويته فيحاول ان يقوم ذاته في حساب الشخصية الفردية، ولكن يعجزه آخر الامر ان يرسم لنفسه صورة متميزة الأبعاد واضحة المعالم .. وكان إذا حاول في فترة وعيه تلك أن يضع نفسه في موضعها من حياة مجتمعه تفاعم شعوره بالتفاهة والفراغ : شيء لا قيمة له بل لا شيء » ... وحين يتوسط البحر تغمره موجة من الخوف والرهبه والقلق فيخطر له ان يقول : « كنت مطمئناً في جوي ذلك الوداع » ... فيجئته الرد العنيف : « أي ساذج أنت ! أكنت تعي ما أنت حتى تشعر بالاطمئنان أو بالقلق » ... أوه .. إنه سينطلق في القصة .. كما تنطلق السفينة في البحر .. باحثاً عن ذاته .. عن الجواب المنشود المرضي للسؤال : « ما انا ؟ » .. ومن هذا النبع ستندفق افكاره ومشاعره وستصب في اتجاه واحد من السلوك . وقبل كل شيء علينا ان نؤكد ان تقرير الذات لا يقبل نوعاً اياً كان من ارغام، فالحرية شرط وحيد ليكون من الممكن أن يجد الانسان ذاته وتحت وقع الجبرية يفقد الانسان ذاته .. وهو في بحثه عن الذات عليه اولاً ان يبحث عن الحرية .. عن المناخ الذي يستطيع ان يجد فيه اجابة صريحة مرضية على السؤال : « ما أنا ؟ » .. لهذا هرب بطلنا إلى باريس لا من أجل الدكتوراه .. ولا

الملم .. ولا الادب .. فو على نصيب كبير من المزاج الفني .. والارغام عدو الفنان اللدود . وفي الشرق أكثر من نوع من ارغام .. هناك العرف والعادة والتقليد والسلطة .. ظلمات فوق ظلمات .. وهو لا يستطيع أن يمر في هذه الظلمات على ذاته التي يحسها ضائعة . فعين يسود العرف والعادة والتقليد والسلطة تطرد الرتبة المملة وينمط الروتين المسئم فيلغح الحياة بالسكون والجود والمهينة رائتت .. إذن فليدع شئونه منذ وطئ باريس « تجري في أعنة المفاجأة » وليحطم « هذه القوانين الصارمة التي

يحيط بها نفسه دون ما جدو » .. وحين يلح رفيقاه في الخروج والسير في باريس الليلة الاولى « يحس الانقباض » لقد كان يشعر شعور السجن الذي يلغظه باب الليان بعد أعوام شاقة مريرة .. ويتطلع لأول مرة فسلا حراس ولا أسوار ولا قيود .. فلا يستطيع أن يتصور ان يمكنه أن يسير بلا حراس ولا قيود فيتردد بين ان يخطو الخطوة الاولى وأن ينش في مكانه لا يريم .. ثم يدفعه رفيقاه دفماً فيخطوها ثم لا يلبث ان ينطلق كطفل لا يهيمه « أن تسقط الثلوج وتلطف الاحوال (قدميه) ما دام اليوم يوم عيد » .. وكما يحتاج الإنسان إلى دليل في الظلام فإنه يحتاج إلى دليل يرشده في بداية عهده بالنور حتى تتكيف حدقاته فيمكنه ان يبصر في وضوح « فلو انه كان وحده لقلق خارجاً قبل ان تخطو قدمه خطوة ثانية في المضي » .. إنه هنا في حاجة إلى صاحبه ليستمد منها الجرأة « على مقاومة الجو الجديد » .. ثم من الطبيعي أن يكون الشعور البادر هو الشعور بالاعتراب متمثلاً في « الحجاب الكثيف الذي ران على شفاههم » إذن فليغر قوا « صمتهم في البيرة .. في كتوس الانصاف الثلاثة » لكنهم لم يتكيفوا بعد مع الضوء الباهر المفاجيء، ولم يصلوا بعد إلى مرحلة الابصار الواضح .. فليعودوا إلى الفندق .. أجل انه لا يكفي ان تنال الحرية لتكون حراً .. يجب أولاً ان تعناد على ان تكون حراً .. أن تتكيف مع الحرية . « لا بد ان نتخط ذلك التهاب البليد الذي تتمثر به قدمك في كل خطوة كأنما أنت طفل في سنه الاولى » ..

هذا الذي يبحث عن ذاته .. هذا المصاب بالترجسية .. يحاسب نفسه اعسر الحساب .. فهو يحصي عليها كل بسادرة ويحسب الحساب كل الحساب لما يراه الناس فيه وما يقوله الناس عنه .. وصاحبنا لا يكاد يسأل « زينه » عن اسمها الحقيقي وينفجر الجميع بالضحك حتى يشعر بالدم يحرق وجهه « أترام يهز أون ني ؟ ولكن ما الذي قلته ؟ أكان خيراً لي ان اظل على صحتي ؟ ان اظل شاعراً أبكم ؟ » ماذا قال ؟ انه لم يقل شيئاً يستوجب الاستزاء .. إنما هو مجال للضحك والمرح يستوجب الضحك من كل شيء او على الأقل تكلف الضحك ، ولكنها الترجسية التي تؤول هذا الضحك مثل هذا التأويل المؤلم .

وحين يعمق الشعور بالذات .. يقترن هذا الشعور بتوم الاضطهاد او بمعنى آخر توم جحود الناس، وتجاهلهم لهذا الذي يشعر عمقاً بذاته . انه يطلب إلى الناس جميعاً ان يحبوه كما يحب هو ذاته وان يقدروه كما يقدر ذاته .. وان يمتثلوا بذاته اعجاباً وشفقاً واستزاً وإجلالاً كما يمتثل هو بذلك لإزاءها .. وحين يصدمه الواقع - ولا بد من صدمة- يكون الرد هو توم التجاهل والعداء العمدي والتأمر .. والجحود والاضطهاد . يقول « فرويد » في معرض كلامه عن الترجسية : « ان المريض الذي يحمله استعداد ابتدائي لديه على الاعتقاد بأنه مضطهد لا يلبث ان يستخلص من هذا انه شخص على جانب كبير من الاهمية والعكس ايضاً صحيح، فالترجسي يشعر بأنه شخص على جانب كبير من الاهمية، وهو لهذا يشعر بأنه مضطهد .

كان يجب ان يتوقع صاحبنا اللبناني ان قيات الليل في باريس لا يعرفه
وانه لا يمكنه ان يملأ وجودهن في ليله او في لقاء عابر « بالسوربريز
بازتي » وهذا كان يوفر على نفسه آلام « الحية » : « اني احب - يقصد
يجب - ان اتنبأ بالامور لاعدها عندتها وأتخيل كيف يمكن ان تجري . .
بذلك وحده اتفادى الحية » ما كانت الحية لتكون لو لم يكن الافراط
من التوقع . . فاذا كان يتوقع - هو صاحبنا اللبناني؟ كان يتوقع او كان
يجب ان ترتمي « سيمون » او « هيلين » او « سوزان » او « جانيت » او
« زينه » او كلهن - اذا امكن - بين احضانه صائحات به : « انت
فارس الاحلام المنتظر » هذا بالضبط . . وهذا وحده ما يرضي الطبيعة
الترجسية . . فاذا وجد ؟ خمس فتيات تحسه شبان (حسب نفسه) بينهم
كالتيه و (أحسن نفسه) دخيلاً ثقيل الظل . . وهكذا لم يكن الافراط
في التوقع ليكون لو لم يكن صاحبنا نرجسياً . . ويستغرقه الشعور بالجحود
والاهمال والتجاهل والاضطهاد يقترون بشموه بان ذاته - كاللانيا - فوق
الجميع . . أوه . . ليس اشد شغفاً بنفسك من نفسك ! انها وحدها التي تحب
كما تريد . . فيصرخ صامتاً : « سأعود الى غرفتي واظل وحدي . أريد ان
اظل وحدي » ويستلقي على سريره فيظفو من باطنه هذا السؤال :
« أنحبب انها هي التي ستقبل للبحث عنك ؟ أتظن انها هي التي ستدنون منك
فتبسم لك ثم تنطف نحوك وتمس في اذنك (انا التي تبحث عنها ، تعال
أحبي) . يقصد ان تقول : « انت الذي ابحت عنك تعال احبك » ولكنه
الآن لا يتيسر له من المرأة مع نفسه ما يجعله يصوغ عباراتها في هذه
الصيغة الصريحة . . فلماذا لم يكن منطقياً هنا مع طبيعته الترجسية ؟ انه
هروب الذات من مواجهة ذاتها في الحالة الواعية ، ولكنه سيكون
منطقياً مع طبيعته الى اقصى حد حين يصدر عن اللاوعي . . وها هو يفعل :
« كان يتصور انهن كثيرات . . كثيرات هنا . . وانه (يكفيه) ان (يسير)
في الطريق ليتهافتن (عليه) و (يمدته) حديث الهوى » أجل هكذا يكون
منطقياً مع طبيعته . . انه لا يتهافت عليهن وانما يريدن ان يتهافتن عليه . .
وفرق بين التهافتين . . وما دمن لا يفعلن ما يريدن منهن فهن اذا جاحدات
وآه لو عرفن اي له هو ! . . اذن لخررن تحت قدميه ساجدات . . وبمي
انه قد صارع نفسه بنرجسيته في غلظة من الرقيب فيحس بالحجل والندم
ويهنض من سريره « تأثر الاعصاب . . تقطع الماء . . تقطع الماء التي تسقط
في المنسلة تثير حنقه بصوتها الرتيب » . . أفكانت نقطة الماء حقيقة سبب
هذه الثورة ام ذلك الاعتراف الباطني الصادر من اللاوعي ؟ أليس نهوضه
هذا هروباً من مواجهة نفسه ورغبة في شغل نفسه عن نفسه بشيء . . ؟

« ينبغي لك ان تطالبها . أن تنشدها . . ان تسمى في اثرها . . انها
هي . . هي في بيروت وباريس . . في جميع انحاء الدنيا » . . ولكن
أكان يبحث عن المرأة حقيقة كما يظن هو وكما يظن كل من قرأ « الحلي
اللاتيني » او تعرض لها بالنقصد ؟ أمن اجل المرأة جاء الى باريس ؟ أكان
يحمل على الشرق لان هذا لم يمنعه من الاجساد المبارية « المتعددة على
السرر » ما يطفئ تلك النار التي تلهب من جسده كما يظن القراء والنقاد
جيباً . . ام ان هناك علة اخرى رئيسية هي الاساس النفسي لملته تلك
الشعواء على الشرق ؟ لا شك انه كان يريد ان يفرق في احضان المرأة
. . ولكن أهذا ما كان يريد حقيقه ؟ انه يعترف بان الشرق كان يسمح
له باجساد قد تكون في « برودة الثلج » وقد يشعر معها « بالفرجة
الروحية » ولكنها اجساد على كل حال . . اما فيما يتعلق بشموه ذلك
من اجساد الشرق « بالاشتمزاز والغثيان » فنحن نكون امام اكتشاف

هام اذا عرفنا انه قد شعر ايضاً بنفس الاشتمزاز والغثيان مع المرأة بباريس
. . ولم يكن لفسد عليه لذته في باريس خوف او برودة . . ما دلالة
هذا ؟ . . ان تلك الاكذوبة الكبرى - الروح - أبعد ما تكون
عن قصدنا بهذا التساؤل . . انما نريد ان نخلص من تساؤلنا الى شيء آخر .
ففي الفصل السادس من القسم الاول (ص ٦٢ - ٦٤) نراه يشعر
إزاء « ليليان » بنفس الشعور - الاشتمزاز والغثيان - فبعد ان قضى حاجته
الجسدية كان لا يزال جائعاً الى شيء . . واقتراره الى الشيء هو الذي
خلع طابع السخف على حديث « ليليان » : « ذلك الحديث الذي سحره
بالأمس » . . وحين أغلق الباب خلفها أرسل زفرة طويلة « كان يشعر
بضيق لا يدرك له تمليلاً إلا انه غير راض عن نفسه » ما علة هذا الضيق ؟
ولماذا لم يرض عن نفسه لو كان ما يريد حقيقه هو الجسد العاري المتمدد
على السرير ؟ ما كان له ان يرضى . . فهو انما يريد شيئاً آخر . . أما ما
هذا الشيء ؟ فتلك هي المسألة !! ثم هو يشعر إزاء « مرغريت » بنفس
الشعور - الاشتمزاز والغثيان - ففي الفصل الثامن ص ٧٨ نقرأ : « ألا
تكفي هاتان التجربتان . . ليليان ومرغريت ؟ وحتى تلك الحاجة التي
كانت تتأكل جسده ، أتراه قد بدأ يشبعها كما كان يتمنى ؟ أكان فيها غير
رغام ؟ وحل ؟ مادة قدرة ؟ أي احساس أيقظته في نفسه هاتان المرأتان
التان استسلطنا له منذ اللقاء الاول ؟ هل احس لاحداهما بأية عاطفة ؟ هل
اهتز في قلبه لها وتر ؟ ماذا ؟ أمثل هذا إذن قدم الى هذه البلاد وغادر
ذلك الوطن ؟ » كلا . . لم تكن علة حملته على الشرق ذلك الصب ولا
ذلك الحرمان ولا تلك القيود والتقاليد والسعي الحائث الى المرأة ولا
الغثيان ولا برودة الثلج ولا الغرابة الروحية . . وهو لم يهرب من الشرق
لأنه يريد أجساداً ولا أرواحاً . . وانما يريد . . يريد ماذا ؟ . .

لقد أحبا بمنف ما في ذلك شك . . هي جانين . . احبها وهو لا يزال
في شرقه يصورها في حلمه ويمعشها في خياله ويناجيها في وحدته . . أحبا
- جانين - قبل أن يلتقي بها بأعوام طوال . . أحبا مثالا قبل أن
يجها وجوداً تحقق فيه المثال القبلي المنشود . . احبها منذ بعيد : صورة
متخيلة لامرأة تحبه كما يجب هو نفسه . . وتراه كما يرى نفسه . . وتقدره
كما يقدر نفسه . . وتفنى فيه . . وتلاشي وجودها في وجوده أو تضحي
وجودها من أجل وجوده . . وتحبه بكل كيانها لانها تعرف ان عليها ان
تحبه بكل كيانها . . إنها ليست امرأة . . بل مثال سابق في مخيلته ، عنه
يصدر وبه يزن وعليه يقيس واليه ينسب . . ولكي يوجد هذا المثال الذهني
يجب ان يتحقق في وجود مادي . . في امرأة . . وهو لا يبحث عن
المرأة وإنما يبحث عن المرأة التي يتحقق فيها هذا المثال القبلي المنشود . .
فلنتحقق في أية امرأة . . في الشرق او في الغرب فهي بعد المرأة
المنشودة . . ولنتحقق في امرأة اياً كانت جميلة أو قبيحة ! . . فهي المرأة
المنشودة . . ولنتكن « زينه » أو « سيمون » أو « هيلين » أو « سوزان »
أو « جانيت » أو « جانين » فهي كائنات ما كان اسمها المرأة المأمولة التي
ينشدها . . فهو كلما لمح امرأة أو تحدث الى امرأة تسأل في لهفة
« اترأها هذه التي ابحت عنها ؟ » قالها عن « زينه » وقالها عن « فتاة السينا »
وقالها عن « ليليان » وقالها عن « جانين » في اللوحة الاولى من القسم
الثاني قبل ان يتكشف له وجدانها عن حب . . انه إذن يريد امرأة معينة ،
امرأة تكون مطابقة لمثال سابق في ذهنه . . هذا المثال وحده هو الذي
يرضي ويشبع الطبيعة الترجسية ، مرة ثانية انه يريد امرأة تحبه لانها تعرف

- التهمة على الصفحة ٥٣ -

« نرجس » ... « في الحى اللاتيني »

تمة المنشور على الصفحة ٣٠

إن عليها ان تحبه وإنه جدير بأن تفتى من اجله. إنه لا يبحث في الحقيقة عن تلك التي يجبها بل عن تلك التي يجب أن تحبه .. أجل يجب .. وهذا النوع النرجسي من الحب لا يكون للاتصال الجسدي فيه الاعتبار الوحيد . وما دام لم يحصل حتى الآن على ضالته فلا بد ان يضيق بباريس كما ضاق بشرقه .. ويضيق بنساء باريس كما ضاق بنساء شرقه .. وكما هرب من شرقه نراه يهرب من باريس - مدينة النور - إلى الظلام .. إلى السينا . « ليس الا صحراء ، صحراء آلم من صحراء شرقك » .. يجب إذن أن نسير في القصة ، وحين نسمعه يتحدث إلى نفسه عن شياطين الشهوة التي تطل من جميع منافذ نفسه .. وعن رائحة المرأة المحيية .. وعن جوعه الشره اليها .. فيجب ألا نخدع عن القصد .. يجب أن نعم أنه هو نفسه كان مخدوعاً او مخادعاً حين كان يظن أن هذا علة البحث عن المرأة ..

والوحة الثالثة من القسم الاول تعطيلنا تصويراً دقيقاً لطبيعة بطلنا النرجسية . إنه يشعر دائماً بأنه جدير بأن يجب .. خالق بشأن يستلقت النظر ويستعري الانتباه والاهتمام حتى ولو كان جالساً في السينا - في الظلام - .. هذه الفتاة التي لا يعلم من أمرها شيئاً .. هذه الفتاة التي لا تعرفه .. تمنحه يدها - أو على الأصح يفتصب يدها - ويقبض عليها فتتململ قليلاً بين أصابعه القوية ويضغظها ببعض القسوة « فاذا هي تتطامن وتستسلم للضمة القاسية » كل هذا يعتبره بطلنا النرجسي « دليلاً على أنها بدأت هي كذلك تميل (اليه) قليلاً » ولكن لماذا تميل اليه ؟ الجواب عنده .. الجواب الوحيد : لأنها يجب ان تميل اليه .. « يجب » ليس غير .. وهي بعد النرجسية التي توحي اليه بهذا الوحي : « عليك الآن ان تخرج . أن تمحي كأمير الأحلام . خلفها في هذا الغموض اللذيذ تفكر بك طويلاً بعد ذهابك .. » إنه وحي النرجسية .. إنه شعور النرجس بالوجوب والجدارة والأهلية والاستحقاق ثم هو يتوقع أن تفتى بالوعد الذي أذنت له إذعاناً في السينا وانها يجب ان تأتي .. ويطول انتظاره فيهبط عليه وحي النرجسية : « ما يدريني ؟ قد تكون هي الآن في منطف قريب ترقبني منه » - كذا - ولا تأتي فيسائل تائراً : « لماذا ؟ . لماذا ؟ انه لا يفهم السبب » .. ثم يتملكه توم الاضطهاد : « لماذا تخدعني ؟ » .. ثم يتساءل : « اكانت شفقة » منها عليه أن تمنحه هذا الوعد بالحيء ؟ وهنا يتوقف .. فجأة حانقاً تائراً .. لا لست بحاجة الى شفقة أحد ... « ولنا هنا وقفة : ماذا استراح صاحبنا نسبياً لفكرة « الخدعة » التي صور بها وعد الفتاة له بالحيء ولم يسترح لفكرة « الشفقة » ؟ لماذا توقف فجأة بهذا الخلق وهذه الثورة ؟؟ من الطبيعي أن يستريح النرجسي نسبياً لفكرة الجحود والاضطهاد تبريراً لتجاهل الغير له لأن توم الاضطهاد ملازم للشعور المفرط بأهمية الذات .. ولكن لا يستريح النرجسي لتصور « الشفقة » وهو في ثورته على هذا التصور منطقي إلى أبعد الحدود مع تركيبه النفسي .. كيف ؟؟ من البديهي ان فكرة « الخدعة » لا تتضمن معنى الانتقاص بينما تتضمن فكرة الشفقة معنى الانتقاص ! فكل إنسان قابل لأن يخدع ولا فرق في هذا بين غي أو ذكي .. ولكن ليس كل إنسان قابلاً لأن يشفق عليه .. لان يكون موضوعاً تنصب عليه شفقة الآخرين . فالواقع أن إشفاقنا على الناقصين نوع من انواع التمويض المعنوي عما بهم من نقص . إننا . لا نشفق على القوي .. بل على الضعيف .

ولا نشفق على السليم بل على المريض .. ولا نشفق على الكبير .. بل على الصغير . وهكذا يتضح لنا مدى ارتباط الشفقة بالنقص .. انها تستلزم وجود كائن ناقص أي أن النقص من لوازم القابلية لاستحقاق الشفقة .. إذن فالشفقة عند بطلنا معناها الإلتقاص .. ومعهم ؟ من ذاته تلك التي يشعر بأهميتها .. ويشعر نحوها بكل الاجلال والحب والتوله . وحين يعترف امام نفسه بأنه إنسان يستحق الشفقة فهذا اعتراف منه بأنه إنسان ناقص .. لهذا توقف صاحبنا فجأة « إنني أقوى من الشفقة ولاني لأهزأ بها . أنا إنسان سوي أعيش بحرية وافعل ما اشاء . وأرفض قبل كل شيء أن أكون موضع شفقة أو رثاء . لست بحاجة الى أن يتصدق علي أحد بماطفة » وهكذا يكون هذا الموقف دلالة قوية على الطبيعة النرجسية في التركيب النفسي لصاحبنا اللبثاني .

وإذ يستريح إلى التبرير الوحيد الممكن الاحتمال نسبياً - الاضطهاد - يكون رد الفعل هو الرغبة في الانتقام من المرأة .. تلك الجاحدة : « إن قصارى ما ينبغي له ان يفعل هو ان يأخذها بين يديه فيعصرها ويعصرها ويمتص كل حلاوتها ثم يلفظها كما تلفظ النواة وسيرى بعد ذلك ويشعر شعوراً لا تردد فيه بأنها هي المسكينه التي تستحق الشفقة والمطف » .. فلنتذكر هذا جيداً .. وحين يقدر لبطلنا ان تحبه امرأة لن ينمى مرارة هذا الاضطهاد الطويل .. سيكون طاغية مستبداً . وسيحاول أن يجردها من إرادتها .. وسيفني وجودها في وجوده .. بكلمة واحدة .. سيستهلكها ، سينكل بها .. سيكون ذلك المنكبوت الخفيف الذي يشل قوى فريسته التي يلقي بها سوء الحظ في شبابه .. وبعد أن يشبع جوعه الشره إلى تكايد الذات لن تكون له بعد هذا غاية .. ولا ضمير ، ولا اخلاق .. بل سيسمى لأن يشبع على نطاق أوسع ذلك الجوع الذي لا يشبع .. تقصد نطاق القضية العربية .. والمجتمع العربي .. فكل القيم تنبع من ذاته .. لأجل ذاته ، وكل القيم ترد الى ذاته .. وسيكون هذا هو فعله بجائين حين يأتي دور جانين .

إننا لن نتبهي من هذا البحث لو تتبعنا جميع الشواهد ، فليس أمامنا إلا ان نخرج من طوايا القصة أشياء نضعها على المائدة أمام عيني القاريء عليه هو أن يقول لنا ماذا تكون العلة إن لم تكن النرجسية في أعماق اغوارها : « ووهنت نفسه حين قرأ في رسالة امه وصف اجتماع للأسرة كان هو فيه مدار الحديث . ابي مكان له في قلوب ذويه ! وما احوجه الى ان يستشعر هنا مثل هذا الحب والتعلق والاخلاص . لقد كان هناك يشرف على حدود عالمه فيعني قيمته . اما هنا فعالم ضائع الحدود بعيد المسافات يحس انه لا يعدو ان يكون فيه اكثر من ورقة جافة من هذه الأوراق الكثيرة التي تسقطها ريح الخريف عن الشجر » .

« وابصر صديقه يتأبط ذراع ليليان ويمضي بها الى فندقه . وحين شعر بأنه وحيد في الطريق حاول طويلاً ان يسكت صوت نفسه وهي تتساءل : أتراني وقمت من نفسها موقع الرضى ام انها .. » ولم يتم صوت نفسه العبارة وأشفق من الجواب فجهد في ان يغير الحديث بالتفكير في موضوع آخر . « وسقط كل الخوف والهيبه والتردد والاضطراب .. أكان حقاً بحاجة الى أن تطلب منه سيكارة او ان تقترح عليه دخول المقهى حتى يشعر بشخصه . حتى يشعر بأنه إنسان حي .. إنسان حر ؟؟ » .. وطوال الطريق جعل يتكلم . لم يكن يريد ان يترك لها مجال الحكم عليه أباً كان هذا الحكم . وقد غول على ان يمكس زمام المبادرة ما دامت قد سلمته طرفه عن رضى ؟؟ فاذا كان يريد ألا يترك لها مجال الحكم عليه ؟ لان الحكم تقويم ،

الترجسية الكامنة في اغوار بطلنا.. تقصد ذلك المونولوج في ص ١٢١ الذي حدث به نفسه في ليلتين متواليتين بعد ان عرف جانين بقليل .. وهنا نجيل الفارسي الى كلامنا عن جانين الواقع وجانين المثل .. وبعد هذا يكون في مكنتنا ان تقسم حديث البطل عن جانين في هذا المونولوج ص ١٢١ الى قسمين :

قسم اول يتحدث عن « جانين المثل » تلك التي احبها قبل ان يلتقي بها باغوام طوال .. والقسم الثاني عن « جانين الواقع » تلك الفرنسية التي تعرف اليها منذ قريب جداً .. وسنجد انه يتكلم في الواقع عن « جانينين » لا عن واحدة.. فهو في القسم الاول من المونولوج يناجي تلك الصورة .. تلك النموذج تلك المثل الذي يبحث عنه منذ بعيد .. تلك التي « تبحث عنها روحك بين ركاب من الصور الباهتة الخائلة » ..

تلك التي ظلت ولا تزال حتى ص ١٢١ غائبة عن وجوده . ولم يكن حديثه حتى ص ١٢١ عن « جانين الواقع » التي ملأت وجوده الفارغ بل عن « جانين المثل » التي ستملاً «بعد الان هذا الوجد الفارغ الذي يبحث ابدأ عن معنى ذاته » حتى يتحقق المثل في واقع .. في وجوده .. في امرأة . وحتى اللوحة الاولى من القسم الثاني من القصة لم تكن « جانين المثل » قد وجدت بعد في واقع ولكن كانت «جانين الواقع » قد ظهرت على مسرح القصة وان كانت هذه ستندمج في تلك عما قريب في اللوحات التالية . والى ان يسأل (هو) نفسه : هل تنوي ان تتخذ من شخص جانين مظهرأ تتحلل فيه من اوزارك وتنفض عنده آثامك ؟ » الى هنا يكون قد فرغ من الحديث عن المثل .. ثم يدلف الى الحديث عن الواقع فاذا هو حديث مخالف في الروح لحديثه عن تلك المثل .. فهو يتحدث هناك حديث الحب والتعلق ... اما هنا - عن الواقع - فهو لم يجب جانين الواقع بعد فيقول : « أتدري حقاً لماذا نجيت ان كنت نجيت ؟ » ولكنه سيحبه حبه لتلك المثل يوم تتوحد جانين المثل بجانين الواقع .. يوم يمتص الواقع المثل .

وقد بدا يجب جانين الواقع .. بل الاصح انه بدأ يعلق عليها الآمال .. وبدأ رجاءه يقوى في ان تكون هذه هي تلك التي يبحث عنها .. متى ؟ .. ولماذا ؟ لانها اعطته الاشارة التي لا يحطها التركيب الترجسي «فلقد اشمرته انها وثقت به - ليلة روت له مأساتها - وتعلم انه غدا يشاركها بعض حياتها وهو من اجل هذا استمداد به ضلوقته بنفسه » « وحين فرغ من ترجمة القصيدة - الحرمان - . رآها تنبض اليه على هيئة قندون منه وتضع كفيها على كفيه وتجل عينها في عينه وتمس : « ما اروعك يا شاعري ! » ها هو الواقع يصمد بجناحي نسر الى المثل .. او ها هو المثل يهبط منقوضاً على الواقع . وها هو بطلنا يسرع الى حيث يلتقي بذاته تلك التي اضناه طلبها ونشذانها .. والنصق « بشفتي جانين .. كان روحاً تمانق روحاً » او على الاصح كانت ذاتاً تعانق ذاتها .. تجذ ذاتها ، تلتقي بذاتها . وان تسأله جانين عن عهد الصداقة كان يستطيع ان يصرخ مع أرشيدس : « وجدتها » ولكنه قال لها بالمني لا بالحرف .. قال : « أحبك يا جانين ! »

ولكن بقيت صورة « هنري » يرى فيه غريباً يقتم ممسه جانين وإن كان في ذهنها مجرد ذكرى .. وحين يسألها : « أعلم أية ذكرى هي .. ولكن هذا الشخص المائل امامك ألا يستحق أية .. » كان يصدر صدوراً أميناً عن الطبيعة الترجسية . فهو يعلم سلفاً بالجواب .. يعلم أية مكانة له في نفسها وقلبا .. يعلم أنه يحتل كيانها كله . ويسأل لا لأنه لا يعرف

.. وهو ينظر الى حكم الغير عليه نظرة الشك والخوف والريبة والتوجس فهناك حكم واحد يرضي الطبيعة الترجسية هو الحكم الذي يصدره الترجس على نفسه .. اما وهو لا يعتقد ان احداً سيمنحه هذا الحكم المرضي بهذه السهولة فهو يتوجس خيفة من كل حكم .. فالترجسي ينظر الى « الآخر » نظرة الريبة والشك والحذر ويجب ان يطابق حكم « الآخر » حكم الذات على ذاتها وهذا هو الشرط الوحيد لرضاء الترجسي عن احكام الغير ..

« وشق عليه ان يجرح الصديق الذي عرفه الى هذه المرأة - ليليان - وان تجرحه هذه المرأة بالذات . وما يدريه اذن ان تستهزئ به هو بالذات امام اول رجل تلتاقه بعد ان تغادره ؟ » هذا هو السر في انه لامس شفتيها « ملامسة خاطفة وابتسم لها وهي تهبط السلم بسهات مفتصة » وهذه هي علة عدم رضاه عن نفسه .. وهذا تلميل الضيق الذي لم يدرك له تلميلاً .. ثم ها هو يؤكد لنا او على الاصح يعترف اخيراً بأنه لم يفر من الشرق ولم يحمل على الشرق حملته بسبب من كبت او حرمان .. ولم يهرب الى باريس من اجل النساء العاريات .. والعطاء الذي يذرنه بلا حساب .. فلو كانت الازمة ازمة كبت وحرمان لانتهى الصراع بعد تجرّبي «ليليان» و«مرغريت» .. لكنه مر بهاتين التجربتين دون ان يتقدم خطوة واحدة نحو الحل .. حل الازمة .. بل هو يعود يسأل نفسه :

« ألت ترمي الحرمان الذي عشت منهن فيه - في الشرق - خيراً من هذا العطاء الذي تميش فيه من نساء باريس ؟ » .. اما تحسره هذا على الحرمان فساقو بطبيعته الترجسية الى اقصى حد ، تلك الطبيعة التي لم تجد في العطاء الاجوعاً وتمطشاً .. حيث كانت في الحرمان تستطيع ان تلجأ الى الخيال والتحايل واتحال الملل والتبرير المرضي فتفسر ظواهر « ذلك الحب الذي لا يصرح عنه ولا يتحدث فيه » هنالك في شرقه .. تفسيراً يرضيها . فاذا كانت « ناهدة » لا تحدته الا حديث الشعر فانه يشر « انها تحب شعره وانها تحبه هو نفسه قليلاً عبر شعره . بل لعلها تنلف عاطفتها نحو شخصه بهذا الغلاف من الاعجاب باده » .. إذن فقد كان ثمة مجال في الشرق .. في الحرمان .. في الحب الذي لا يصرح عنه .. للاحتيال المريح نسبياً .. اما هنا في باريس .. في العطاء .. في الحب المكشوف .. فلا مجال للاحتيال وانما هو القطع واليقين المكشوف ..

وفي اللوحة الاولى من القسم الثاني تقف امام اقوى دلالة على الطبيعة

صدر حديثاً :

كانديدا

لبرنارد شو

وهي الكتاب الرابع من سلسلة روائع المسرح العالمي ، وقد نقلتها الى العربية

الآنسة سميرة عزام

دار العلم للملايين

التمن ليرة لبنانية

بل لأنه يستزيد .. كمادة الريفي عندنا إذ تتحقق له أمانة عزيزة فيطلب من آخر أن يجزه بدبوس كي يصدق أنه ليس بالحالم وهو بمد يعلم أنه ليس بالحالم ولكنه فقط يريد أن يستزيد .. أن يتلذذ .. إذن فقد وجد بطلنا ذاته .. أخيراً .. وها هو يشعر : « بالفخر والاعتزاز إذ يدخل قساعة السوربون الكبرى وجانين الى جانبه .. ولقد رأى العيون تلنت اليهافي نهم لا يتزده عن الغيرة » إنه هنا الميل إلى العرض والاعلان عن الذات . ويدل على هذه الازمة ويؤكدها تصرفه ذاك في مطعم « لوي غران » حيث عرف أصدقاءه الى جانين .. فهو « بهم بأن يدي شفثيه من خدها » كأنما يريد أن يؤكده لرفاقه أن هذه ملكه .. وكأنه يقول لهم « انظروا .. انظروا .. هاأنذا أستطيع وحدي أن أفعل هذا ممها .. إنها ملكي .. انظروا .. »

يقول الفوضوي « ماكس ستيرنر » : « أنا أمتلك ذاتي حقاً من اللحظة التي أعي فيها ذاتي وأنتقطع عن البحث عن هذه الذات .. وماكس ستيرنر لا يعرف من الحب إلا ذلك « الحب الأثاني » : الذي يرى الكائن المحبوب شيئاً خلق لإرضاء الذات الأثانية و(غذاء لأهواء الأثا) .. وشبهه بهذا الكلام قول « فرويد » - في معرض حديثه عن النرجسية - « يجتذب الموضوع الجنسي إليه في المادة جزءاً من نرجسية الأنا ومن ثم ينشأ مايسمى بالإغراق في تقدير القيمة الجنسية للموضوع . فإذا اضيفت إلى هذا غيرية موجهة الى الموضوع ومشتقة من أنانية المحب أصبح الموضوع الجنسي على درجة بالغة من القوة والسمو ونستطيع ان نقول انه امتص الأنا بكيته » أي أصبح هناك توحيد أو اندماج بين الأنا والموضوع .

إننا نقاوم هنا رغبة عنيفة جارفة نحاول ان ترغمنا على أن نعرض في هذا البحث للربط بين « النرجسية والفوضوية والوجودية » على اساس نفسي .. لأن عبادة الذات هي العامل المشترك بين الثلاثة .. ولكننا لن نفعل وقد نفعل في بحث مستقل . ولكن لا يفوتنا هنا أن نذكر ان صاحبنا اللبناني شاب يمتنق أفكار « سارتر » وليس من قبيل المصادفة قوله : « .. أي عمق ونفاذ هذا الذي تكشف عنه نظرات سارتر في المسؤولية والحرية . لسوف يذكره طويلاً فيما بعد . سيذكر حركات سارتر هذا في عينيه وقسماته ويديه يوم يعيش أشهراً طويلاً مع « ماتيو » بطسل « دروب الحرية » .. ونحب أن نخطو خطوات سريعة الى نهاية هذا البحث وللقارئ حرية المراجعة والبحث البطيء إن لم تكفه اللحمة الخاطفة .. ها هي جانين قد أشعرت صاحبنا بذاته وأشعبت غروزه .. وعالجت في كيانه النفسي ذلك الجرح العميق .. الشعور بالنقص .. « لا .. لم يكن جيلاً وقد كان وانقأ من ذلك » وقد أصبح : « بحسب أن سرته تكسب وجهه طاباً من الرجولة لا تقابله المرأة باللامبالاة . وإن النورور ليدغدغه إذ يذكر أن الشقرة لا تتنافر مع السمرة » .. وأخيراً .. واجهته جانين بالسؤال الكبير « ماذا بعد ؟ » .. ويثيره هذا السؤال فيقول : « ولكن لماذا تضرحه هذا السؤال ؟ أي تحبني حقاً ؟ أو ما تدرك أن إثارة هذا الأمر تنفص علي هنا في اء و لنا هنا وقفة لن تطول : إنها تطلب منه الزواج . غاية المرأة .. فلماذا يقابل هذا الطلب الطبيعي بمثل هذه الثورة ؟ ولماذا يكون طلبها هذا مدعاة للشك في حبا له فيتساءل : أي تحبني حقاً ؟ .. اننا نحيل القارئ على فكرة الذاتيين عن الزواج وبخاصة « شوبنور » و « بيرون » و « نيشه » و « شبنجر » ليعلم ماذا تكون فكرة النرجس عن الزواج .. لأنها فكرة قوامها البغض والكرهية والنفور والإنكار والاشتراز لأن مقتضاها أن يكون الرجل

مجرد وسيلة لإنجاب الأطفال .. مجرد أداة .. مجرد قنطرة تمبرها المرأة الى غايتها الطبيعية .. حفظ النوع .. لا غاية تعيش المرأة من أجلها . والذاتي او النرجسي يقبل كل شيء إلا أن يكون مجرد وسيلة او قنطرة أو أداة . إن ذاته غاية الغايات . وحسب المرأة أن تحبه وأن تفتنى في حبه فهذا أيضاً يجب أن يكون لها غاية الغايات . فان كانت جانين تحبه حقيقة فليها - في رأيه - أن تقنع بحبا له، عليها أن تعيش من أجل غاية واحدة هي حبا له .. فليس بمد هذا شيء يجوز لها في شرع النرجسية أن تشده .. ماذا بعد ؟ يا للكارثة .. وماذا يمكن أن يكون بمد هذا ؟ .. لا شيء .. لا شيء ... وتقترن فكرة الزواج لدى الذاتيين على العموم وخاصة لدى النرجسيين منهم بفكرة الامتلاك ، والاستحواذ كما تقترن لديهم - لدى النرجسيين - بالبرودة والضجر والروتين والرتابة .. الد اعداء التركيب النرجسي الذي ينزع دائماً إلى الحركة والنشاط والتجديد والانفعال والاستتارة .

أما عن مصير جانين فهو المصير المحتوم لفريسة المنكبوت النرجس .. مصداق هذا قولها : « ذلك كان شأني دائماً : ضعيفة غاية الضعف في حبك . أما أنت عزتلك هذه التي تحب الى الشرق وتمفضه في آن واحد » وقوله : « حق ما تقول وليس الى انكاره من سبيل . لقد كانت هي دائماً كذلك وذكر ما قالته له منذ ايام : « لقد طبعني بطلبك وسأظل ابداً اسيرة قيودك . إن مصيري تقرر منذ رأيتك . لم تبق لي إرادة .. » وهكذا استهلكها .. صاحبنا المنكبوت .

وختام الدلالات على نرجسية البطل حديثه التالي إلى جانين :

« - مسكينة هذه الأسبانية ! كان في عينها الأنا في والرغبة في اللقاء . وقد اعدتها بالفعل مساء اليوم التالي - ونظر الى ساعته ثم ضحك - أي الآن .. أعتقد انها منذ ربع ساعة تنتظر قدومي إلى محطة « الأوديون » - ثم فاجأ نفسه يتحدث هذا الحديث الثقيل الذي يرشح منه الفرور »

- ولماذا يخلف « دون جوان » وعده : ما رأيه في ان اذهب الان لافسح له المجال ؟

(فالقي رأسه على صدرها الحار وهو يتمتم) :

- أنحب جانين ان « دون جوان » يؤثر عليها احداً ؟ تلك كانت تسلية عابرة وان جانين لتعلم انها اجل حب في حياتي .. »

تحيلوا مبلغ ألم جانين وهي تسمع منه هذا الحديث .. ثم وهي تقول له : « ولماذا يخلف « دون جوان » وعده ؟ » وكونوا على يقين من انه كان يتمد ان يمدنها ويتلذذ بهذا التمذيب لها ..

اخيراً .. نظن اننا قد اعطينا القارئ ما يكفي، وعليه هو ان يراجع القصة ليري ما اذا كانت جزئية واحدة تفك من احكام هذا التشريح . ولن نمضي في هذا البحث الى اكثر مما ذهبنا .. لاننا قد قلنا سابقاً بتقلب عنصر الاختراع والصيغة في القسم الثالث من القصة .

وأخراً .. لقد كان الدكتور سبيل ادريس رائداً يرود الطريق للوعرة نحو قصص عربي يقوم على التحليل النفسي الدقيق الامين الواعي الذي لا تنقصه الشجاعة والجرأة والصدق .. وهذا ما كنا نحتاج ونفتقر اليه في ادبنا العربي المعاصر بعامه ..

نجيب سرور

القاهرة

من رابطة (الألم) المشترك